Harran Üniversitesi İlahiyat Fakültesi Dergisi, sayı 25, Ocak-Haziran 2011, s. 177–204

السياق بين التراث والمعاصرة: قراءة دلالية في خصائص ابن جنّي

الدكتورة سويس البطمان*

الملخّص : يؤكّد التفكير اللغوي أن دلالة الحدث الكلامي كاملة لا يمكن أن تقتصر على المعنى المعجمي، أو على أي جانب آخر من جوانب اللغة منعزلاً عن سائر الجوانب، بل لا بدّ من النظر إليها ضمن السياق بشقّيه: اللغوي (المقالي) والاجتماعي (المقامي)، الذي يزيل اللّبس والغموض عن الكلام الإنساني، ويقوم بتحديد المعنى المقصود من بين الاحتمالات المتعدّدة التي ينصرف إليها الذهن.

ولما كانت نظرية السياق غربية جديدة في شكلها، عربية قديمة في مضمونها، فقد تناولت هذه الدراسة موضوع (السياق بين التراث والمعاصرة)، وركّزت على كتاب الخصائص لرائد الفكر اللغوي العربي القديم ابن جنّي، وقرأتْه قراءة دلالية معاصرة، تقوم على التتبّع والاستقصاء بغية استجلاء غوامض هذه المسألة عنده، والكشف عن فهمه لطبيعتها، في ضوء معطيات علم اللغة الحديث الذي يحفل بنظريات لغوية كثيرة، منها: نظرية السياق في اللغة Contextual theory of language لزعيم المدرسة الاجتماعية الانكليزية فيرث.

* قسم اللغة العربية وآدابها كلية الآداب والعلوم الإنسانية / جامعة حلب

المقدّمة :

يثبت الواقع اللغوي أن لكلّ كلمة مفردة استعمالاً خاصّاً بها في مواطن الكلام، بعد أن تُبنى أصولها على إحدى الصيغ الصرفية. ومع مرور الزمن، وباختلاف البيئات وتنوّع المواقف والمناسبات، تتعدّد الاستعمالات، ويجتمع لها معانٍ متعدّدة تُدوّن في صفحات المعجم، ويبقى كلُّ واحد من هذه المعاني مُحْتَملاً حتى ترد الكلمة في سياق معيّن يكشف عن معنًى مقصود، له حدود واضحة، وسمات محدّدة. على حين تغيب المعاني الأخرى.

فعلى الرغم من المعاني المتنوّعة التي تدلّ عليها كلمة (اللِّسان) في اللغة العربية . وهي من المشترك اللفظي . فإنها في حقيقة الأمر لا تحمل دلالة بعينها على معنًى واحدٍ دون الآخر، وإنما يحصل هذا عندما تستعمل في سياق لغوي معيّن يفرض عليها أحد المعاني الذي ينصرف إليه الفهم دون سواه، فيغيب عنها الاشتراك.

ففي قولنا: عَضَّ الطفلُ لسانَه، تفيد كلمة (اللِّسان) معنى العضو المعروف في الفم. وقد تأتي في سياق آخر لتفيد معنى ملَكة الكلام؛ كما في قولنا: لسانُ زيدٍ مليءٌ بالثناءِ. وفي سياق ثالث تدلّ على معنى اللغة؛ كما في قولنا: وردَ هذا في اللسانِ العربي. وقد تحمل دلالة على معنى المتكلِّم عند القوم في سياق رابع؛ كما في قولنا: زيدٌ لسانُ قومِه. وفي سياق خامس تدلّ على معنى نبات سُمّي بذلك تشبيهاً له باللسان؛ كما في قولنا: زرعتُ لسانَ الحمَل.

ولهذا لم يعُدْ كافياً، لفهم معنى كلمة ما، النظرُ في معجم لغوي. بل لابدّ من البحث عنه في البيئة اللغوية التي قيل فيها. وذلك لأن المعنى المعجمي ليس كل شيء في إدراك المعنى، فثمّة عناصر ذات تأثير كبير في توجيه المعنى، وأجواء تكسب الكلمة ظلالاً مؤقّتة على حسب استعمالاتها التي تكوّن قيمتها التعبيرية. ومن هنا فإن طبيعة

المعنى في تضاعيف المعجم تختلف عنها داخل السياق.

وترجمة هذا أن للسياق أهمّية بالغة في تفسير الأحداث الكلامية. ولذلك اتّخذه كثير من العلماء القدماء والمحدثين (عرباً وأجانب) أساساً في الدراسات اللغوية والاجتماعية، وفي تفسير كثير من العلاقات الدلالية؛ من مثل: الترادف، والاشتراك اللفظي، والتضاد، والتناقض، وغير ذلك.

البحث :

قبل الشروع في عرض ما جاء عن العرب الأقدمين عموماً وعن ابن جني بوجه خاصّ، من إشارات والتفاتات وأقوال هامّة في السياق، يحسن الوقوف – في حدود مايسمح به هذا البحث– عند السياق لدى الدارسين المحدثين بوصفه نظرية دلالية علمية متكاملة، لها أسسها وأركانها ومنهجها في تحليل الحدث الكلامي.

نظرية السياق عند علماء الغرب المحدثين:

سعى عدد من العلماء المحدثين إلى دراسة المعنى اللغوي انطلاقاً من السياق الذي ترد فيه الكلمات على أساس أن اللغة نوع من السلوك الإنساني الذي لا يمكن فهمه بمعزل عن أنشطة الإنسان الأخرى. وقد لاقت مناهجهم قبولاً لأنها تستبعد البحث في المسائل البعيدة عن التفكير اللغوي، وتهتمّ بالعناصر اللغوية والاجتماعية سواءٌ بسواء.

فالعالم الأنثروبولوجي البولندي مالينوفسكي Malinoweski (ت1942م) رأى أنه لا يمكن للنصوص أن تؤدّي معنى، ما لم تُعرف الحال التي كان عليها المتكلِّم حين نطق بها، لأن سياق الحال Context of Situation أو الظروف المحيطة بالحدث

اللغوي جزء متمّم لهذا الحدث[1]. وثمّة من يرى أن هذا المصطلح كان متداولاً قبل مالينوفسكي، ويردّ محمود السعران أصل استعماله إلى هوكارت Hocart [2].

أما فيرث Firth (ت1960م) فقد تبنّى مصطلح (سياق الحال) وطوّره في دراساته اللغوية حتى أصبح نظرية متكاملة، ترسم تحليلات عملية على مستويات مختلفة تشمل جميع أنواع الوظائف الكلامية عرفت باسم (نظرية السياق في اللغة) Contextual theory of language [3]، التي أظهرت أن المعنى الدلالي كلّ مركّب من مجموع الوظائف اللغوية (المقال)، بالإضافة إلى سياق الحال أو سياق الموقف (المقام).

ووفقاً لهذه النظرية السياقية يُفسّر المعنى بأنه وظيفة في سياق. وهذا اعتراض بيِّن على المناهج التي فسّرت المعنى على أساس بعيد عن طبيعة اللغة، وفي مقدّمتها المنهج العقلي النفسي لأوغدن وريتشاردز اللذين ذهبا إلى أن المعنى علاقة في العقل بين الحقائق والأحداث من جهة، والرموز أو الكلمات التي تستعمل للإشارة إليها من جهة أخرى.لكن فيرث يستبعد اعتبار المعنى علاقات في عمليّات عقلية كامنة، وينظر إلى المعنى باعتبار أنه علاقات موقفية في سياق الموقف، منطلقاً من الأساس الاجتماعي الذي تقوم عليه دراسته، ومن حقيقة أننا لا نعرف عن العقل إلا القليل جداً، ولهذا يدعو إلى ضرورة الكفّ عن علاقة الازدواجية بين العقل والجسم، والفكرة

([1])- ينظرمحمود السعران ، 1958م، اللغة والمجتمع رأي ومنهج . المطبعة الأهلية، بنغازي، ص7- 10. و1962م، وعلم اللغة مقدّمة للقارئ العربي . دارالفكرالعربي،القاهرة، ص 309-310. و تمّام حسّان، 1998م، اللغة العربية معناها ومبناها . الطبعة الثالثة، عالم الكتب، القاهرة، ص 372.

([2])- ينظر محمود السعران، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي . ص 310.

([3])- ينظر جون ليونز، 1990م، ما معنى نظرية المعنى عند فيرث. ترجمة عبد الكريم مجاهد، مجلة آفاق عربية، عدد كانون الأول، ص 60-69 .

والكلمة، وتعويضها بالإنسان الكامل، في ارتباطه ببني جنسه [1].

فهو يرى أن المعنى هو مجموعة الخصائص والمميِّزات اللغوية للحدث المدروس، وهذه الخصائص لاتدرس دفعة واحدة، بل لابدّ من تناولها على مراحل أو مستويات مختلفة. ولهذا فإن المعنى عنده شيئ معقّد ذو أجزاء أو عناصر، ووظيفة فروع علم اللغة مجتمعة بيان هذه العناصر وتحليلها، وبهذه الطريقة نحصل على الدلالة المقصودة للكلمة دون الاستعانة بعلوم أجنبية أخرى. وبعبارة أخرى فهو يتناول المعنى من داخل اللغة لامن خارجها. ولهذا نراه يشقّق المعنى إلى سلسلة من المستويات المكوِّنة، تتمثّل في شقّين اثنين :

1- الشقّ اللغوي(المقال) : ويشمل المستوى الصوتي (الفونولوجي)، والمستوى الصرفي (المورفولوجي)، والمستوى النحوي (التركيبي/النظمي)، ثم المستوى المعجمي. ويجب توخّي الحذر من الفصل بين هذه المستويات، لأن بعضها يرتبط ببعضها الآخر ارتباطاً وثيقا، ولا يجوز الفصل بينها إلّا بما تسمح به ظروف خاصّة. وبما أن الكلام اللغوي يتألّف من أحداث لغوية مركّبة، فإنه ليس من السهل دراسة هذه المستويات دفعة واحدة، بل لابدّ من دراستها على مراحل، إذ تقود كلّ مرحلة إلى أخرى تتبعها بيُسر ودون تعقيد، إلى أن يصل الباحث إلى نتائجه النهائية بشكل صحيح ودقيق، بعيداً عن الصعوبات والأخطاء.

2- الشقّ الاجتماعي(المقام) : ويشمل الشخصيات المشارِكة في الحدث الكلامي (المتكلِّمين، والمخاطبين، والسامعين إن وُجدوا). كما يشمل البيئة بكلّ أطيافها، وجميع الملابسات، والظروف المحيطة التي تشكّل خلفية ثقافية مهمّة بما تتضمّنه خبراتُ المشاركين في الماضي والحاضر، تلك الخبرات التي يدخل فيها التراث الشعبي،

---

(1)- ينظر محمد محمد يونس علي، المعنى وظلال المعنى أنظمة الدلالة العربية. دار المدار الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، 2007م، ص 120.

والعادات، والتقاليد، والمعتقدات، والخُزَعْبِلات. وقد أشار فيرث إلى " أن كلّ إنسان يحمل معه ثقافته وكثيراً من واقعه الاجتماعي حيثما حلّ "[1]. يضاف إلى هذا كلّ ما يصدر عن الإنسان من إشارات، أو حركات جسمية، أو ضحك،أو غمز، أو لمز، أوغير ذلك ممّا يصحب الكلام الإنساني.

ولم يفُت فيرث بيانُ نوع الوظيفة الكلامية؛ من استفهام، أو شرط ، أو تعجّب، أو تمنٍّ، أو ترجٍّ، أو إغراء، أو تحذير، أو غير ذلك [2].

كما لم يغِب عنه ذكرُ الأثر الذي يتركه الكلام؛ من اقتناع، أوعدم اقتناع، أو موافقة، أو رفض ،أو تصديق، أو تكذيب، أو إنكار، أو تألّم، أو ضحك ، أو سخرية، أو غير ذلك [2].

وعلى هذا، فإن الاتّجاه الصحيح في الوصول إلى معنًى دلالي محدّد للحدث الكلامي– إنْ في النصّ المنطوق وإنْ في النصّ المكتوب – يقتضي تحليل هذا الحدث على المستويات اللغوية المختلفة: الصوتية، والصرفية، والنحوية، والمعجمية. كما يقتضي بيان سياق الحال الذي يشمل الشخصيات المشاركة بهذاالحدث، والأشياءالمرتبطة به.

وإلى مثل هذا ذهب ليونز Lyons، فقد رأى أنه لا يمكن للباحث اللغوي أن يكوّن نظرية سياق مُقنِعة إلّا إذا اعتمد على العلوم الاجتماعية، وعلى نتائجهاعامّة [3].

ولم تتوقّف نظرية السياق عند هذا الحدّ، بل قام عدد من أتباع فيرث؛ وغيرهم ممّن

([1])- المرجع السابق، ص117 .

([2])- ينظرمحمود السعران ، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي . ص340-341 .

([3])- ينظر جون ليونز ، 1987م، اللغة والمعنى والسياق . ترجمة عباس صادق عبد الوهاب، الطبعة الأولى، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ص 242.

أُطلق عليهم (الفيرثيون الجدد) New Firthians، بتطوير آرائه. وعالجوا مسألة المعنى، فرأوا أن معنى الكلمة هو استعمالها في اللغة، أو الطريقة التي تستعمل بها، أو الدور الذي تؤدّيه. ولهذا فإن دراسة معاني الكلمات تتطلّب تحليلاً للسياقات والمواقف التي ترد فيها، حتى ما كان منها غير لغوي [1].

ومنهم من ركّز على السياق اللغوي، وتوافُق الوقوع أو الرَّصْف أو المصاحبة Collocation الذي يعني الارتباط المعتاد لكلمة مّا في لغة مّا بكلمات أخرى معينة في الجمل [2]. وعليه فإن أحد معاني (الشمس) هو بالطبع قبولها مصاحبة (النهار)، وأحد معاني (النهار) هو بالطبع قبولها مصاحبة (الشمس)، إذ لايُعقل أن تصاحب الشمسُ الليلَ.

وقد بالغ بعضهم حين رأى أن الكلمات لا معنى لها ألبتّة إذا كانت معزولة عن السياق [3]. بيد أن أولمان Ullmann تجنّب المغالاة، ورأى في هذا مبالغة ضخمة، وتبسيطاً كبيراً للأمور، لأن للكلمات المفردة معاني اختزنها المتكلِّمون والسامعون في أذهانهم، واحتوتها تضاعيف المعاجم، مع أن كثيراً من الكلمات غامضة، وأن معانيها لا تحظى بالدقّة والتحديد تحديداً صحيحاً، إلّا إذا ضمتها التراكيب الحقيقية المنطوقة. وهذا لا يعني ألّا يكون لها معنًى أو عدد من المعاني المركزية الثابتة [4].

السياق عند العلماء العرب الأقدمين :

إذا كانت نظرية السياق ترى أن المعنى هو المحصّلة النهائية لتحليل الحدث

---

(1)- ينظر أحمد مختار عمر ، 1982م، علم الدلالة . مكتبة العروبة، الكويت، ص 68.

(2)- ينظر محمد محمد يونس علي ، المعنى وظلال المعنى أنظمة الدلالة العربية . ص 121.

(3)- ينظر استيفن أولمان ، 1975م، دور الكلمة في اللغة . ترجمة كمال بشر، مكتبة الشباب، القاهرة، ص 55.

(4)- ينظر نفسه، والصفحة نفسها.

الكلامي بالاستناد إلى مستويات اللغة كافّة. وإذا كانت تُولي السياق الاجتماعي أو سياق الحال أهمّيةً خاصّة، وتذهب إلى أن تحديد المعنى المقصود بدقّة لا يتمّ إلّا بمعرفة مجموع العناصر والظروف التي تحيط بالحدث الكلامي. فإن العلماء العرب الأقدمين– على اختلاف علومهم من مفسّرين، وأصوليين، وبلاغيين، ولغويين – سبقوا إلى هذا كلّه، وتنبّهوا إلى السياق بشقّيه اللغوي (المقالي)، والاجتماعي أو الحالي (المقامي) في تحديد الحدث الكلامي. وإنْ جاءت أقوالهم مبعثرة تفتقر إلى التنظيم في إطار شامل متكامل.

فلقد تمثّلت فكرة السياق عند المفسّرين في وجوب تقيّد المفسّر بمجموعة من العلوم؛ منها ما يتّصل بالسياق اللغوي أو سياق المقال الذي يعتمد على المستوى الصوتي كالفصل والوصل، ومواطن الوقف والابتداء. وعلى المستوى الصرفي كمعرفة الصيغ والأبنية، وعلى المستوى النحوي كبيان المعاني المختلفة باختلاف المواقع الإعرابية، وعلى المستوى المعجمي كمعرفة مدلولات الألفاظ [1]. ومن ذلك أيضاً ما يتّصل بسياق الحال أو سياق المقام الذي يشمل ظروف نزول الآيات القرآنية، والأحداث والوقائع المحيطة بها، والترتيب الزمني لنزولها، ومعرفة المكّي والمدني. يضاف إلى هذا وجوب استحضار النصّ القرآني كلّه عند تفسير بعضه، والاستعانة بالسنّة القولية والفعلية، والعودة إلى أقوال الصحابة الذين شاهدوا الأحوال والقرائن عند نزول الآيات [2].

أما الأصوليون – ومن واقع عنايتهم بتحديد معنى النصّ القرآني بصورة دقيقة – فقد تنبّهوا إلى السياق بمفهومه الواسع، وأكّدوا ضرورة الاستعانة بجميع عناصره المقالية

---

(1)- ينظرالسيوطي ،1973 م، الإتقان في علوم القرآن . المكتبة الثقافية،بيروت،1: 83-91، و 99-130، و 179- 186. و2: 96-105، و 174.

(2)- ينظرنفسه،1: 8-44.و 2: 108-114.

والمقامية، لأن الألفاظ المفردة والتراكيب تتعرّض لألوان مختلفة من التغيّر الدلالي بسبب السياقات المختلفة. فمن وسائل فهم المعنى المراد من منطوق النصّ القرآني تقدُّم المعرفة بوضع اللغة التي بها المخاطبة، بعناصرها اللغوية المختلفة، الصوتية، والصرفية، والنحوية، والمعجمية. ومن ذلك أيضاً الاستعانة بقرائن الأحوال من إشارات، ورموز، وحركات، وسوابق، ولواحق يختصّ بدركها المشاهد لها، فينقلها بألفاظ صريحة مع قرائن توجب علماً ضرورياً بفهم المراد أو ظنّاً به [1].

وما المقامات المختلفة باختلاف المواقف الاجتماعية، التي سعى البلاغيون إلى حصرها والفصل بينها، وما العبارات المشهورة التي خلّفوها في تراثهم الثمين "لكلّ مقام مقال" و "البلاغة في الكلام ومطابقته لمقتضى الحال" و "لكل كلمة مع صاحبتها مقام" [2]. إلّا دلالة واضحة على تمييزهم بين عناصر السياق اللغوية (المقال) والاجتماعية أو الحالية (المقام)، باعتبارها أساساً متميّزاً في تحليل المعنى وتحديده بصورة دقيقة. ولعلّ النظر في دراسة البلاغيين للنَّظم الذي لا يعني توالي الألفاظ في النطق فحسب، أو ضمّ الشيء إلى الشيء كيفما اتفق. بل المقصود به ترتيب الكَلِم حتى يتعلّق بعضها ببعض، ويبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك. ولابد فيه من تتبّع آثار المعاني، واعتبار الأجزاء بعضها مع بعض، وتلاقي معاني الكلمات على الوجه الذي يقتضيه العقل. ولا يكون هذا إلّا بما يستوجبه علم

([1])- ينظر الغزالي ، 1322 هـ،كتاب المستصفى من علم الأصول . الطبعة الأولى، المطبعة الأميرية، بولاق، مصر، 1: 339 - 340، 1: 417- 429 .

([2])- ينظر القزويني ،1405 هـ - 1985 م ، الإيضاح في علوم البلاغة . تحقيق محمد عبد المنعم خفاجة، الطبعة السادسة، دارالكتاب اللبناني، بيروت، 80 . 84. وابن خلدون ، 1992م، المقدمة . تحقيق علي عبد الواحد وافي، الطبعة الأولى، لجنة البيان العربي، القاهرة، 4: 1263. والسكاكي ، 1317 هـ، مفتاح العلوم . تحقيق محمد الازهري الغمراوي، المطبعة الأدبية، القاهرة، ص 86.

النحو [1].

وما هو غنيّ عن البيان أن اللغويين العرب القدماء أشاروا إلى أن معنى الكلمة المقصود لا يفهم إلّا ضمن ما يجاورها من كلمات تقدّمت عليها أو تأخّرت، فكلام العرب يصحّح بعضه بعضاً ويرتبط أوّله بآخره، ولا يعرف معنى الخطاب منه إلا باستيفائه واستكمال جميع حروفه. فقد تقع الكلمة على معنيين متضادّين، ولا يُراد بها في حال التكلّم والإخبار إلّا معنًى واحدٌ، وما يتقدّمها وما يأتي بعدها يحمل الدلالة على خصوصيّة أحد المعنيين دون الآخر [2]. وهذا يعني أن الكلمة حين تكون بعيدة عن السياق قد يغمض معناها، وتكثر ملابساتها فتحتمل أكثر من معنى. بيد أنها محدّدة المعنى المقصود، لا لُبس ولا غموض ضمن السياق. وفي هذا قرب واضح من نظرية الرَّصْف السياقية الحديثة.

ومن هنا يبدو واضحاً أن العلماء والمفكّرين العرب الأقدمين – على اختلاف علومهم – قد أرسوا قواعد لدراسة السياق، ووضعوا أسساً ومعايير مهمّة لفهم طبيعته.

السياق عند ابن جني :

إذا كانت نظرية فيرث السياقية بشقّيها اللغوي ، والاجتماعي من نتائج الفكر الغربي المعاصر في دراسة اللغة، فإن واحداً من أبرز روّاد التفكير اللغوي في تارخ الإرث العربي ، أبا الفتح ابن جنّي (ت 392 هـ) سبق إلى هذا، وعرض له في أكثر من موضع في كتابه (الخصائص)، وإنْ كانت آراؤه متناثرة مبثوثة في أبواب مختلفة ينقصها التنظيم المتكامل، إلّا أن هذا لا ينال ممّا قدّمه في مجال السياق بشقّيه المقالي

(1)- ينظر الجرجاني ، 1404هـ - 1984م، دلائل الإعجاز. تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص 49-81.

(2)- ينظر ابن الأنباري ، 1960م، الأضداد. تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، الكويت، ص 2.

والحالي.

وفيما يتعلّق بالشقّ المقالي؛ فمن الواضح أن ابن جنّي بسط الحديث في عناصره، وانطلق من الأنواع الدلالية التي تمثّل كلاًّ مركّباً من مجموع الوظائف الصوتية (الفونولوجية)، والصرفية (المورفولوجية)، والنحوية (التركيبية أو النظمية)، ثم المعجمية. وتُعين في تحديد المعنى المقصود بدقّة، دون أن يطلق عليها المصطلحات المعروفة حديثاً؛ وهي: الدلالة اللفظية، والدلالة الصناعية، والدلالة المعنوية. وهو يصنّف هذه الدلالات من حيث القوة والضعف على ثلاث مراتب قائلاً في (باب في الدلالة اللفظية، والصناعية، والمعنوية): " اعلم أن كل واحد من هذه الدلائل مُعْتَدٌّ مراعًى مُؤْثَر؛ إلّا أنها في القوّة والضعف على ثلاث مراتب: فأقواهنّ الدلالة اللفظية، ثم تليها الصناعية، ثم المعنوية " [1]. ثم يذكر من ذلك ما يصحّ به الغرض بقوله:" فمنه جميع الأفعال. ففي كل واحد منها الأدلّة الثلاثة. ألا ترى إلى قامَ، ودلالة لفظه على مصدره، ودلالة بنائه على زمانه، ودلالة معناه على فاعله. فهذه ثلاث دلائل من لفظه وصيغته ومعناه " [1].

تلك هي الدلالات التي تقابل في مجموعها إلى جانب العنصر المعجمي . ما أطلقت عليه نظرية فيرث السياقية (عناصر السياق اللغوي).

وأبرز مايصادف الباحث اللغوي في هذا الجانب أن ابن جنّي غلّب العنصر الصوتي على غيره من العناصر، ولا غرابة في هذا، فأبو الفتح- كما هو معروف عنه - من أكثر المتحمّسين لفكرة الصلة بين الصوت ومدلوله. فقد انصبّ اهتمامه عليها، وطوّل الحديث فيها، وفصّل في دقائقها للكشف عن خفاياها في أكثر من مكان في خصائصه.

([1])- ابن جني ،1952، الخصائص. تحقيق محمد علي النجار، الطبعة الثانية، دارالكتب المصرية،القاهرة،3: 98.

ولدى تدقيق النظر فيما ورد عنه على المستوى الصوتي، يتبيّن أن الكلمات ذات معنى يُستمد من طبيعة الأصوات. فقد يعتمد هذا المعنى على صوت (فونيم) دون سواه، أو على مجموعة أصوات (فونيمات) دون أخرى في الكلام المنطوق به. وبعبارة أخرى قد يُؤْثِر هذا المعنى استبدالَ صوت بآخر بين الكلمات، فيطرأ تعديل أو تغيير في دلالات تلك الكلمات. فكلمة (خَضِم) - كما يذكر ابن جني- تدلّ على أكل الرَّطْب؛ كالبطيخ والقثَّاء وما كان نحوهما من المأكول الرَّطْب. وهي إذا قورنت بكلمة (قَضِم) التي تدلّ على أكل الصلب اليابس؛ نحو: قَضِمت الدابة شعيرَها ونحو ذلك، يتّضح أن صوت (الخاء) في الكلمة الأولى له دخل في تحديد دلالتها؛ فقد منحها ذلك الرخاء واللِّين. على حين أكسب صوت (القاف) في الكلمة الثانية تلك الصلابة والشدّة. ومنه قولهم:" قد يُدْرك الخَضْم بالقَضْم؛ أي قد يُدرك الرخاء بالشِّدة، واللِّين بالشَّظف " [1].

ثم أخذ يقابل الكلمات بما يشاكل أصواتها من المعاني؛ من ذلك قولهم: (تنضَح) للدلالة على تسرّب الماء الضعيف، و (تنضَخ) للدلالة على تدفّق الماء بقوّة". فجعلوا الحاء . لرقّتها للماء الضعيف، والخاء . لغِلظها . لما هو أقوى منه " [2]. ومن ذلك أيضاً كلمة (تؤزّهم) في الآية الكريمة:" ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزّهم أزّاً " [3]. بمعنى تزعجهم وتقلقهم، وهذا بمعنى (تهزّهم هَزّاً). والهمزة أخت الهاء، لكن العرب " خصّوا هذا المعنى بالهمزة لأنها أقوى من الهاء، وهذا المعنى أعظم في النفوس من الهزّ، لأنك قد تهزّ ما لا بال له؛ كالجذع وساق الشجرة، ونحو ذلك " [4].

---

(1)- نفسه، 2 :157 .

(2)- ينظرنفسه، 2 :158 .

(3)- سورة مريم، 83.

(4)- ينظرنفسه، 2 : 146.

وهذا ما يسمّيه فيرث بالوظيفة الثانوية، أوالصغرى، أوالقاصرة Minor Phonetic Function [1]. ،في مقابل الوظائف الكبرى : الصرفية، والنحوية، والمعجمية، ووظيفة سياق الحال. وإذا كانت الدلالة الصوتية قاصرة عند فيرث، فهي عند ابن جنّي أقوى الدلالات الثلاث.

ولم يقتصر ابن جنّي على هذا الحدّ، بل وجد أن الحركات في لغتنا الفصحى (الفتحة، والضمة، والكسرة) وحدات صوتية لها وظيفة في التركيب الصوتي، لأنها جزء أساسي منه، لا تنفصل عنه في أثناء النطق به. ، فهي أصوات أساسية يمكن أن تكون مقابلاً استبدالياً، شأنها في هذا شأن الأصوات الأخرى تماماً. فمادة (ك ل م) عند ابن جني حيث تقلّبت فمعناها الدلالة على القوّة والشدّة. إلّا أن كلمة (الكلام) تحمل . إلى جانب هذا المعنى . دلالة على معانٍ جزئية مختلفة باختلاف الحركات. فحركة الفتحة التي تعدّ جزءاً لا يتجزّأ من حرف الكاف في (الكَلام) تحمل دلالة على معنى الملَكة المعروفة لدى الإنسان، فإذا أصبحت كسرة أو ضمة كانتا مقابلاً استبدالياً له أثره في تغيير الدلالة نحو معنى الجروح في (الكِلام) بكسر الكاف، ومعنى ما غَلُظ من الأرض في (الكُلام) بضم الكاف [2].

ومن ذلك أيضاً:" قولهم للسُلَّم: مِرْقَاة، وللدرجة: مَرْقاة. فنفس اللفظ يدل على الحدث الذي هو الرقيّ، وكسر الميم يدل على أنها مما يُنْقَل ويُعتمل عليه وبه؛ كالمِطْرَقة، والمِئْزَر، والمِنْجَل, وفتحة مَرْقاة تدلّ على أنه مستقرّ في موضعه، كالمِنارة والمِثَابة... فنفس (ر ق ي) يفيد معنى الارتقاء. وكسرة الميم وفتحتها تدلان على ما قدّمناه: من معنى الثبات أو الانتقال " [3]. وهكذا فإن سائر الحركات، تختلف في

---

(1)- ينظرعبد الكريم مجاهد ، 1985، الدلالة اللغوية عندالعرب . دار الضياء، الأردن، ص 166.

(2)- ينظرالخصائص،13:1.

(3)- نفسه،3: 100-101 .

نطقها حسب مواقعها الصوتية، فتؤدّي دلالات مختلفة كالأصوات الأخرى.

ويعرّج صاحب الخصائص على السياق المقالي في موطن آخر ليؤكّد القيمة الصرفية التي توّجه مادة الكلمة الأساسية وتضعها في مجال وظيفي معيّن، حيث يُستمد المعنى المقصود بطريق الصيغ وأوزانها، وبعبارة أخرى من الصورة الصرفية التي تكون عليها. وأوّل ما عبّر عنه في هذا المقام ،هو أنه جعل الدلالة الصناعية في المرتبة الثانية من سُلّم ترتيبه قائلاً:" وإنما كانت الدلالة الصناعية أقوى من المعنوية من قِبَل أنها وإنْ لم تكن لفظاً فإنها صورة يحملها اللفظ، ويخرج عليها ويستقرّ على المثال المعتزَم بها. فلما كانت كذلك لحقت بحكمه، وجرت مجرى اللفظ المنطوق به، فدخلا بذلك في باب المعلوم بالمشاهَدة " [1]. فهو يرى في المصدر (القتل، والضرب) أن اللفظ نفسه يفيد الحدث فيهما، والصيغة نفسها تفيد صلاحهما للأزمنة الثلاثة [2]. ويرى كذلك في المصادر الرباعية المضعّفة على بناء (فَعْلَلَة)؛ نحو: الزَعْزَعَة، والصَلْصَلَة، والقَعْقَعَة، والصَعْصَعَة، والجَرْجَرِة، والقَرْقَرَة. أن اللفظ نفسه يفيد الحدث، والصيغة نفسها تدلّ على التكرير، إذا استُخدم المثال المتكرّر للمعنى المكرّر [3]. ومنه (الفَعَلان) في المصادر؛ نحو: النَقَزَان، والغَلَيَان، والغَثَيَان. فاللفظ يفيد الحدث، والوزن يأتي للاضطراب والحركة؛ فقد توالت الحركات في هذه الصيغة، للدلالة على الأفعال التي تتوالى الحركات فيها [4]. ومنه أيضاً (الفَعَلَى) في المصادر والصفات، إنما تأتي للدلالة على السرعة؛ نحو: البَشَكَى، والجَمَزَى، والوَلَقَى[5]. يضاف إلى هذا بناء (فاعِل)؛

([1])- نفسه،98:3 .

([2])- ينظر نفسه،99:3 .

([3])- ينظر نفسه،153:2 .

([4])- ينظر نفسه، 152:2 . والنَقَزَان: الوثب صُعُداً. ينظرابن منظور ، د.ت، لسان العرب. دار صادر، بيروت مادة (نقز).

([5])- ينظر نفسه،153:2 . والبَشَكْى: الناقة السريعة. والجَمَزَى: العَدْوُ السريعُ. والوَلَقى: الناقة السريعة. ينظر اللسان،المواد

نحو: قائم وقاعد. فلفظه يفيد الحدث الذي هو القيام والقعود وصيغته الصرفية تدلّ على كونه صاحب الفعل[1].

وفي إطار الحديث عن الصلة بين صورة الكلمة (صيغتها، أو بنائها، أو وزنها) ودلالتها على معناها، ساق أمثلة على (فَعِيلة) التي تطلق على خلق الإنسان، كي " تُؤْذن بالإِلْف والملاينة والإصحاب والمتابعة" [2]. كما تدلّ على " التمرين على الشيء، وتليين القويّ ليُصْحِب وينجذب " [3]. من ذلك: الطبيعة، والغريزة، والسَّليقة، والسَّجِيّة، والنَّحِيزة وغير ذلك من الألفاظ .

ويستوفي هذا المسارُ حظَّه عند ابن جني الذي يرى أن تكرير العين في بناء (فَعّل) يوجه الدلالة إلى تكرير الفعل؛ نحو: قطَّع، وكسَّر، وفتَّح. فاللفظ يفيد معنى الحدث، وصورته الصرفية تفيد شيئين: أحدهما الماضي، والآخر تكثير الفعل [4]." فلما كانت الأفعال دليلة المعاني كرّروا أقواها؛ وجعلوها دليلاً على قوّة المعنى المحَدّث به وهو تكرير العين "[5]. وعلى هذا فإن كل زيادة في المبنى تقابل زيادة في المعنى. فبناء (افعوعل) أقوى معنى من (فعل). وهذا ما أقرّ به ابن جنّي في (باب في قوّة اللفظ لقوّة المعنى) بقوله:" منه قولهم: خَشُنَ واخْشَوْشَنَ. فمعنى خَشُنَ دون معنى اخْشَوْشَنَ؛ لِما فيه من تكرير العين وزيادة الواو... وكذلك قولهم: أعْشَبَ المكان، فإذا أرادوا كثْرة العشب فيه قالوا: اعْشَوْشَبَ... ومثله باب فَعَل وافْتَعَلَ؛ نحو: قَدَر واقْتَدَر. فاقتدر

(بشك)، و (جمز)، و(ولق).

(1)- ينظر نفسه،101:3 .

(2)- نفسه،116:2 .

(3)- نفسه،117:2 .

(4)- ينظر نفسه،101:3 .

(5)- نفسه،155:2 .

أقوى معنى من قولهم : قدر"[1]. وكذا الحال في بناء (فاعَلَ) حيث توجّه الزيادةُ فيه الدلالةَ إلى معنى التشارك؛ نحو: ضارَبَ الذي يفيد بلفظه معنى الحدث (الضرب)، وبصيغته الزمن الماضي، وكون الفعل من اثنين، وبمعناه على أن له فاعلاً. " فتلك أربعة معانٍ. فاعرف ذلك إلى ما يليه؛ فإنه كثير؛ لكن هذه طريقة " [2].

وفيما يتّصل بالبنية النحوية التي ترد فيها الكلمة، على اعتبارها وحدة نحوية، فإنه من المسلَّم به أن الكلمات لا ترد في الجملة بصورة عشوائية. بل تخضع لنظام معّين لو اختل لأصبح فهم المراد محالاً. فقولنا: الجامعة العاشرة محمّد صباحاً إلى أتى الساعة، بدلاً من قولنا: أتى محمّد إلى الجامعة الساعة العاشرة صباحاً. يؤدّي إلى عبارة غير مفهومة ولا معنى لها البتّة. ذلك لأن العلاقات النحوية الصحيحة بين هذه السلسلة من الألفاظ قد اختلّت. وهذا يعني أن معنى الجملة لا يتأتّى من مجموع معاني الكلمات المفردة التي ترد فيها، بل من التركيب النحوي السليم. وصحيح أن التغيير في البنية النحوية، وعلاقات الكلمات، ووظائفها، ومواقعها من الترتيب من شأنه أن يغيّر في الدلالة. بيد أن تغيير مواقع الكلمات لا يُغَيّر بالضرورة من دلالة الجملة الأساسية، ولكنه قد يحدث تأثيراً معنوياً أسلوبياً يقتضيه السياق، فينقل مواقع التركيز المعنوي من كلمة إلى أخرى ضمن عوامل السياق الأخرى. فقولنا: زيد عندك، غير قولنا: عندك زيد. وقولنا: جاء الرجل، غير قولنا: الرجل جاء، وقولنا: ضرب عمرٌو الغلامَ، غير قولنا: ضرب الغلامَ عمرٌو. فقد انتقل موقع التركيز على المعنى من كلمة (زيد) في البنية النحوية الأولى إلى كلمة (عندك)، ومن كلمة (جاء) في البنية النحوية الثانية إلى كلمة (الرجل)، ومن كلمة (عمرو) في البنية الثالثة إلى كلمة (الغلام).

في هذا الجانب يأتي إشكال حذف كلمة أو كلمات من البنية النحوية يقضيه

([1])- نفسه،3:264 .

([2])- المصدر السابق، 3:101 .

السياق. ولعلّ منتهى الدقّة والتصريح في فكّ هذا الإشكال قد صادفه أبو الفتح، إذ تنبّه إلى أن شاهد الحال قد ينوب مناب اللفظ المحذوف، ويكون له تأثير واضح في بيان المعاني النحوية التي تترتب عليها المعاني الدلالية، وذلك لأن " المحذوف من اللفظ إذا دلّت الدلالة عليه كان بمنزلة الملفوظ به " [1]. من ذلك " ما أقيم من الأحوال المشاهدة مقام الأفعال الناصبة؛ نحو قولكَ إذا رأيتَ قادماً: خيرَ مَقْدم، أي قدِمت خيرَ مقَدم. فنابت الحال المشاهَدة منابَ الفعل الناصب " [2]. ومنه أيضاً " أن ترى رجلاً قد سدّد سهماً نحو الغرض ثم أرسله، فتسمع صوتاً فتقول: القرطاسَ واللهِ، أي أصاب القرطاس. فـ (أصاب) الآن في حكم الملفوظ به البتّة، وإن لم يوجد في اللفظ، غير أن دلالة الحال عليه نابت مناب اللفظ به " [3]. وكذلك " قولهم لرجلٍ مُهْوٍ بسيف في يده: زيداً، أي اضرب زيداً. فصارت شهادة الحال بالفعل بدلاً من اللفظ به " [4]. و "كان رؤبة إذا قيل له كيف أصبحت يقول: خيرٍ عافاك الله . أي بخيرٍ . يحذف الباء لدلالة الحال عليها بِجَرْيِ العادة والعرف بها "[7]. ولهذا لم يُجِزْأبو الفتح توكيد الفعل الناصب المحذوف " من قِبَل أن الفعل هنا قد حَذَفَتْهُ العرب وجعلت الحال المشاهِدة دالّة عليه ونائبة عنه، فلو أَكَّدْتَه لنَقَضْتَ الغرض، لأن في توكيده تثبيتاً للفظه المخْتَزَل، ورجوعاً عن المعْتَزَم من حذفه واطّراحه والاكتفاء بغيره منه " [5].

وعلى أهمّية ما تقدّم فقد جعل أبو الفتح العنصر النحوي في حيّز الدلالة المعنوية التي أنهى بها سلّم ترتيبه، حين جعلها في المرتبة الثالثة والأخيرة قائلاً: "وأمّا المعنى فإنما

---

(1)- نفسه، 1:293 .
(2)- نفسه، 1:264 .
(3)- نفسه، 1:284-285 .
(4)- نفسه، 1:285 .
(5)- نفسه، 1:287 .

دلالته لاحقة بعلوم الاستدلال، وليست في حيّز الضروريات؛ ألا تراكَ حين تسمع (ضَرَبَ) قد عرفتَ حَدثَه، وزمانَه، ثم تنظر فيما بعد، فتقول: هذا فِعْل، ولابد له من فاعل، فليت شعري مَن هو؟ وماهو؟ فتبحث حينئذٍ إلى أن تعلم الفاعلَ مَن هو وما حاله، مِن موضع آخر لا من مسموعِ ضرب؛ ألا ترى أنه يصلح أن يكون فاعلُه كلّ مذكّر يصحّ منه الفعل، مجملاً غير مفصّل. فقولك: ضرب زيد، وضرب عمرو، وضرب جعفر، ونحو ذلك شرع سواء، وليس لِضَرَب بأحد الفاعلين هؤلاء، ولا غيرهم خصوص ليس له بصاحبه، كما يخصّ بالضرب دون غيره من الأحداث، وبالماضي دون غيره من الأبنية. ولو كنت إنما تستفيد الفاعل من لفظ ضرب لا معناه للزمك إذا قلت: قام، أن تختلف دلالتهما على الفاعل لاختلاف لفظيهما، كما اختلفت دلالتهما على الحدث لاختلاف لفظيهما، وليس الأمر في هذا كذلك، بل دلالة ضَرَب على الفاعل كدلالة قام، وقعد، وأكل، وشرب، وانطلق. واستخرج عليه، لا فرق بين جميع ذلك " [1]. ثم يردف قائلاً:" فقد علمت أن دلالة المثال على الفاعل من جهة معناه، لا من جهة لفظه؛ ألا ترى أن كل واحد من هذه الأفعال وغيرها يحتاج إلى الفاعل حاجة واحدة، وهو استقلاله به، وانتسابه إليه، وحدوثه عنه، أو كونه بمنزلة الحادث عنه " [1].

ويتقّدم ابن جنّي خطوة أخرى نحو ما يسمّيه السياقيون المحدثون بالمعنى المعجمي، ليبيّن أن لكلّ كلمة معنًى معجمياً مستقلاً، إلّا أنها عندما تُنسّق في سياق خاص تنبثق منها دلالة جديدة واضحة؛ ذلك لأن المعاني قد لا يوصل إليها إلّا بمعرفة سياق الكلام والظروف التي أحاطت بها. من ذلك . مثلاً . (رفع عقيرته) بمعنى (رفع صوته)؛ إذ لا صلة بين المعنى المعجمي أو الاشتقاقي (للعقيرة) وهو رفع الرجل المعقورة أي المقطوعة، وبين رفع الصوت عالياً. والسبب في هذا . كما يرى أبو الفتح . يعود إلى

---

(1)- نفسه، 3:98-99 .

السياق الذي قيلت فيه هذه العبارة. فهو يقول في صدد حديثه عن شاهد الحال:" ألا ترى قولهم للإنسان إذا رفع صوته: قد رفع عقيرته؛ فلو ذهبت تشتقّ هذا، بأن تجمع بين معنى الصوت، وبين معنى (ع ق ر) لَبَعُد عنك وتعسّفتَ. وأصله أن رجلاً قُطعت إحدى رجليه، فرفعها ووضعها على الأخرى، ثم صرخ بأرفع صوته، فقال الناس: رفع عقيرته " [1].

ومع الإقرار بأن المعنى المعجمي يختلف عن المعنى الاجتماعي (معنى سياق الحال)، فإن العنصر المعجمي أقرب العناصر جميعها إلى المعنى الاجتماعي، لأن الكلمات المفردة ودلالاتها لا تُدَوّن في المعجم إلّا بعد اتفاق اجتماعي يقوم على الاصطلاح والمواضعة والعرف.

وتبقى عوامل أخرى لا تدخل في البنية اللغوية، لكنها تسهم إسهاماً كبيراً في الكشف عن المعنى المقصود في سياق معيّن، وتحديده من بين المعاني المختلفة المحتَمَلة، وبخاصّة في النصّ المنطوق أو المسموع. وهي المعروفة عند أصحاب السياق المحدثين بظواهر الأداء الصوتي، أو ظواهر التطريز الصوتي Prosodies؛ من مثل: التنغيم Intonation، والنبر Stress [2]. وبصرف النظر عن معرفة ابن جني بتلك المصطلحات اللغوية الحديثة، فإن فطنته إلى قيمتها الدلالية، وإلى أثرها في توجيه المعنى أمر واقع فعلاً. وما من شكّ أن موضوع النبر والتنغيم قد تركّز في ذهنه ، كماتركّز- في الحين ذاته - أن للنبر والتنغيم كبير الأثر في تحديد المعنى بدقّة، فهو يكشف عن هذا في سياق حديثه عن دلالة شاهِد الحال، قائلاً:" وقد حذفت الصفة ودلّت الحال عليها. وذلك فيما حكاه صاحب الكتاب من قولهم: سِير عليه ليل، وهم يريدون: ليل طويل. وكأن هذا إنما حذفت فيه الصفة لِما دَلّ من الحال على موضعها. وذلك

([1])- نفسه،66:1. وينظر248:1 .

([2])- ينظر تمّام حسّان ، ،اللغة العربية معناها ومبناها . ص47 ، و226-227 .

أنك تحس في كلام القائل لذلك من التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله: طويل، أو نحو ذلك. وأنت تحس هذا من نفسك إذا تأمّلته. وذلك أن تكون في مدح إنسان والثناء عليه. فتقول: كان والله رجلاً ! فتزيد في قوّة اللفظ بـ (الله) هذه الكلمة، وتتمكّن في تمطيط اللام وإطالة الصوت بها وعليها؛ أي رجلاً فاضلاً، أو شجاعاً، أو كريماً، أو نحو ذلك. وكذلك تقول: سألناه فوجدناه إنساناً ! وتمكّن الصوت بإنسان وتفخّمه، فتستغني بذلك عن وصفه بقولك: إنساناً سَمْحاً أو جواداً، أو نحو ذلك. وكذلك إذا ذممته ووصفته بالضيق قلت: سألناه وكان إنساناً ! وتزوي وجهك وتقطّبه، فيغني ذلك عن قولك: إنساناً لئيماً، أو لَحِزاً، أو مُبخّلاً، أو نحو ذلك " [1]. فالتطويح الذي يعني به ابن جني مباعدة الصوت أثناء النطق، والتطريح الذي يقصد به تطويل الصوت ومباعدته أثناء النطق، والتعظيم والتفخيم بالصوت شكل من التنغيم، وزيادة قوّة الضغط على صوت معيّن في الكلمة ما هو إلّا النبر نفسه عند المحدثين. إن هذا التحليل الدلالي لدور عناصر الأداء الصوتي في توجيه المعنى دقيق لا ريب، فابن جنّي يدرك هذا كله إدراكاً واعياً دقيقاً، وليس كما زعم بعض العرب المحدثين الذين أخذوا على القدماء عدم تعرّضهم لهذا الأمر [2].

وإذا كان فيرث يرى في نظريته السياقية الحديثة أن دلالة سياق الحال هي المحصّلة النهائية لتحليل الحدث الكلامي بالاستناد إلى عناصر السياق المقالي كافّة، وإذا كان يذهب إلى أن تحديد المعنى بدّقة لا يتمّ إلا بمعرفة مجموع العناصر والظروف التي تحيط بالحدث الكلامي؛ فإن ابن جني تقدّم عليه بألف سنة أو تزيد، وتناول هذا كله،

---

(1)- الخصائص، 2:370-371 . واللّحِز: الضيّق الشحيح النفس الذي لا يكاد يعطي شيئاً، فإن أعطى فقليل. ينظر اللسان، مادة (لَحِزَ).

(2)- ينظر عودة خليل أبو عودة ، 1985م، التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي، ولغة القرآن الكريم . الطبعة الأولى، مكتبة المنار، الأردن، ص74.

وبسط الحديث فيه.

ولعلّ الشقّ الاجتماعي من السياق المتمثّل بمصطلح (سياق الحال) عند فيرث، يقود ذاكرتنا إلى مخزون التراث العربي الثمين ، ليقدّم لنا مصطلحاًعربياً قديماً كان قد خلّفه ابن جني فيما خلّف (شاهد الحال)، الذي أطلقه على شيء قريب ممّا في نظرية السياق الحديثة. ففي معرض حديثه عن الفرق بين الكلام والقول، وعن تجوّز بعض العرب في تسمية الاعتقادات والآراء قولاً لا كلاماً، يقول:" فلأن الاعتقاد يخفى فلا يُعرف إلا بالقول، أو بما يقوم مقام القول: من شاهد الحال " [1]. ويُبيّن سبب غموض بعض التسميات غير المقرونة بالأحوال التي تفسّرها، بقوله:"نعم؛ وقد يمكن أن تكون أسباب التسمية تخفى علينا لِبُعدها في الزمان عَنّا؛ ألا ترى إلى قول سيبويه: أو لعلّ الأوّل وصل إليه علم لم يصل إلى الآخِر[2]؛ يعني أن الأوّل الحاضِر شاهَد الحال، فعرف السبب الذي له ومن أجله ما وقعت عليه التسمية؛ والآخِر لبعده عن الحال . لم يعرف السبب للتسمية "[3]. ويتأمّل ابن جني ليرى الدليل على أن العلماء القدماء:" قد أحَسّوا ما أحسسنا، وأرادوا وقصدوا ما نسبنا إليهم إرادته وقصدَه شيئان: أحدهما حاضِر معنا، والآخر غائِب عنّا، إلّا أنه مع أدنى تأمّل في حكم الحاضر معنا. فالغائب ما كانت الجماعة من علمائنا تشاهده من أحوال العرب ووجوهها، وتضطر إلى معرفته من أغراضها وقصودها: من استخفافها شيئاً أو استثقاله، وتقبّله أو إنكاره، والأنس به أو الاستيحاش منه، والرضا به أو التعجب من

([1])- الخصائص،19:1 . تتوارد المصطلحات الدالّةعلى شاهد الحال في (الخصائص) على النحو التالي: المشاهَدة، 3: 98، والحال الشاهِدة 1:287، والأحوال المشاهِدة 1: 264، والأحوال الشاهِدة 1: 245، وشهادة الحال 1: 285، ومشاهَدة الأحوال 1: 248، ودلالة الحال 1: 285، والحال الدالّة 1: 228، والدلالة على... 1: 286، 1: 287، 1: 288، 1: 293.

([2])- ينظر سيبويه ، 1316هـ، الكتاب. الطبعة الأولى، المطبعة،الأميرية الكبرى، بولاق، مصر، 1: 268.

([3])- الخصائص،66:1 .

قائله، وغير ذلك من الأحوال الشاهدة بالقصود، بل الحالفِةِ على ما في النفوس "[1]. وفي هذا إشارة صريحة واضحة لا تقلّ عمّا أفادته نظرية السياق بـ (الحدث غير الكلامي)، وبخاصةً حين صوّر التصرّفات التي تبدر؛ من استخفاف أو استثقال، أو تقبّل أو إنكار، أو أُنْس أو استيحاش، أو رضا أو تعجّب، مع ما يرافق ذلك من ملامح ترتسم على الوجوه وكأنها شاهِد يقسم على صدق قوله حتى لا يترك شكّاً فيما يقول.

وعلى عادة أبي الفتح، أخذ يدلّل على ما ذهب إليه بشاهد مفادُه أن شاعراً كان قد عقد النكاح على امرأة ولم يدخل بها بعد، فمرت به في نسوة وهو يطحن بالرَّحى لضيف نزلوا به. فحكى الشاعر ما قالته وهي تصكُّ وجهها بيمينها، مستنكرةً ما رأته من طحنه الحبَّ بالرَّحى، ومستفظعة ما شاهدته من تخفّفه وتبذّله، ومستشنعة هيئته وامتهانه نفسه فيما يُمتهن فيه الخَدَم، ويأنف من تولّيه ذوو الرزانة والعِزّة. يقول أبو الفتح:" ألا ترى إلى قوله:

تقولُ . وَصَكَّتْ وْجَهَهَا بِيَمينِها . أَبَعْلِيَ هذا بالرحى المتقاعسُ[2].

فلو قال حاكياً عنها: أبعلي هذا بالرحى المتقاعس . من غير أن يذكر صكَّ الوجه . لأَعْلَمَنا بذلك أنها كانت متعجّبة منكرة، لكنه لما حكى الحال، فقال: وصكّت وجهها، عُلِم بذلك قوّة إنكارها، وتعاظم الصورة لها هذا مع أنك سامع لحكاية الحال، غيرُ مشاهِد لها، ولو شاهدتها لكنت بها أعرف، ولِعظَم الحال في نَفْس تلك المرأة أبْيَن، وقد قيل: ليس المخْبَر كالمعَايِن, ولو لم ينقل إلينا هذا الشاعر حال هذه

([1])- نفسه، 1:245.

([2])- ينظرالمرزوقي ، 1951 . شرح ديوان الحماسة . تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون، القاهرة، 2: 695-696 . والتبريزي ، 1358 هـ، شرح ديوان الحماسة، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، مصر،2: 228 . والبيت عند المرزوقي (ودقّت صدرها) ، وعند التبريزي (وصكّت نَحرها) .

المرأة بقوله: وصكّت وجهها، لم نعرف به حقيقة تعاظم الأمر لها. وليست كلّ حكاية تُروى لنا، ولا كلّ خبر ينقل إلينا يُشْفَع به شرح الأحوال التابعة له، المقترنة كانت . به. نعم ولو نُقلت إلينا لم نُفِد بسماعها ما كنّا نفيده لو حضرناها"[1].

فمن الملاحظ أن هذا الشرح يتضّمن أموراً نصّت عليه نظرية السياق، سبق ابن جنّي إلى ذكرها؛ وهي:

1- الحدث الكلامي: الذي يظهر في قول المرأة (أبعليَ هذا بالرَّحى المتقاعس!).

2- الحدث غير الكلامي: الذي يبدو في عبارة (وصكّت وجهها بيمينها).

3- أثر هذين الحدثين في السامع والمشاهد الذي عَبَر عنه ابن جنّي بقوله:" ... هذا مع أنك سامع لحكاية الحال، غير مشاهِد لها، ولو شاهدتَها لكنتَ بها أعرف، ولِعِظَم الحال في نفس تلك المرأة أبْين".

4- وجوب الإحاطة بالأشياء الوثيقة الصلة بالحدث الكلامي، ويتجلّى واضحاً في قوله:" فلو قال حاكياً عنها: أبعليَ هذا بالرحى المتقاعسُ- من غير أن يذكر صكَّ الوجه – لأعلمنا بذلك أنها كانت متعجّبة منكرة، لكنه لما حكى الحال، فقال: وصكّت وجهها، عُلِم بذلك قوة إنكارها، وتعاظم الصورة لها ".

فقد بدا على غاية من الدقّة وبُعدالنظر حين رأى في الارتباط الوثيق بين الحدث الكلامي أو المقال (أبعلي هذا بالرَّحى المتقاعسُ)، وبين الحدث غير الكلامي أو سياق الحال (صكّ الوجه) قرينةً تزيل الإبهام وتوضّح موقف المرأة في قوّة إنكارها وتعاظُم الصورة لها، لا مجرّد الإنكار الذي قد يتبادر إلى الذهن؛ وذلك أن صكّ الوجه من أبرز القرائن وأوضحها دلالةً على قوّة الإنكار.

وتتكامل عنده فكرة الربط بين المقال والمقام، إذ يأخذ على شاعر آخر أَوْجَزَ في

([1])- الخصائص،1:245-246.

النطق فاستغنى بالحرف عن الجملة، ولم يذكر قرينة توضّح موقف المرأة التي قيل لها: قفي، فقالت: قاف؛ أي وقفتُ، أو إني واقفة. وكأنه لا يرى في ذلك استحساناً ولا استعذاباً. فهو يقول:"وكذلك قول الآخر:

قلنا لها: قفي لنا. قالت: قاف [1].

لو نقل إلينا هذا الشاعر شيئاً آخر من جملة الحال فقال مع قوله " قالت قاف": (وأمسكت بزمام بعيرِها)، أو (عاجته علينا) لكان أَبْيَنَ لِما كانوا عليه، وأَدلَّ على أنها أرادت: وقفتُ، أو توقَّفْتُ، دون أن يُظَنّ أنها أرادت: قفي لنا ! أي يقول لي: قفي لنا ! متعجّبة منه. وهو إذا شاهدها وقد وقفتْ علِم أن قولها: قاف إجابة له، لاردّ لقوله وتعجُّب منه في قوله: قفي لنا"[2].

ويبلغ تعلّقه بأهمّية شاهد الحال أقصاه عندما يذكر أن الحمّالين، والحمّاميين، والساسة، والوقّادين، ومن يليهم ويُعتَدّ منهم، يستوضحون مِن مشاهَدة الأحوال ما لا يمكن لأبي عمرو بن العلاء (ت 154هـ) أن يحصّلَه من شعر الفرزدق (ت 110 هـ) إذا أُخْبِر به عنه، ولم يَحضره يُنشده [2].

ويتّسع شاهد الحال عند أبي الفتح ليشمل إشارات الوجه واليدين وغير ذلك ممّا يساعد على تعيين المعنى وتحديده. فقد فطن إلى " أن الإنسان إذا عَناهُ أمر فأراد أن يخاطب به صاحبه، ويُنْعِم تصويرَه له في نفسه استعطفه ليُقبل عليه؛ فيقول له: يا فلان، أين أنت، أرني وجهك، أَقْبِلْ عليّ أُحدّثك، أما أنت حاضر ياهناهْ. فإذا أَقْبِلَ

---

(1)- ينظر أبو الفرج الأصفهاني ، 1932، الأغاني . الطبعة الأولى. مطبعة دار الكتب المصرية، 5: 131، 21: 54. ذكر الأصفهاني في كتابه هذا أن البيت للوليد بن عقبة بن أبي معيط. وكان عاملاً على الكوفة لعثمان بن عفان . رضي الله عنه . فاتُّهِم بشرب الخمر، فأمر عثمان بحضوره إلى المدينة المنوّرة، فخرج الوليد في ركب يسوق بهم، وقال:

قلت لها: قفي، قالت: قاف لا تحسبينا قد نسينا الإيجاف.

(2)- الخصائص،246:1.

عليه، وأصغى إليه، اندفع يحدّثه أو يأمره أو ينهاه، أو نحو ذلك. فلو كان استماع الأُذُن مُغْنِياً عن مقابلة العين، مجزئاً عنه لما تكلّف القائل، ولا كلّف صاحبه الإقبال عليه، والإصغاء إليه. وعلى ذلك قال:

العينُ تُبْدي الذي في نفسِ صاحبِها من العداوةِ أو وُدٍّ إذا كانا[1].

وقال الهُذَلي[2]:

رَفَوْنِي وقالوا : يا خُوَيْلِدُ لا تُرَعْ فقلت . وأنكرْتُ الوجوَه: هُمُ هُمُ[3].

أفَلا ترى إلى اعتبار بمشاهدة الوجوه، وجعلها دليلاً على ما في النفوس. وعلى ذلك قالوا: رُبّ إشارة أبلغُ من عبارة ... وقال لي بعض مشايخنا رحمه الله: أنا لا أحسن أن أكلِّم إنساناً في الظلمة " [4]. وزيادة في التأكيد على ما ذهب إليه من ضرورة الاستعانة بالأحداث غير الكلامية التي تتمثّل في التصرّفات والملامح، والإشارات التي تصوّر ما في النفس تصويراً دقيقاً لاشكّ في صحته تمنّى على علماء العربية الذين تقّدموا عليه أن يشاهدوا وجوه العرب فيما تتعاطاه من كلامها، وتقصد له من أغراضها؛ قائلاً : " ألا تستفيد بتلك المشاهدة وذلك الحضور ما لا تؤديه الحكاياتُ، ولا تضبطه الروايات، فتُضطرّ إلى قُصود العرب، وغوامض ما في أنفسها، حتى لو حلف منهم حالف على غرضٍ دلّته عليه إشارة، لا عبارة، لكان عند نفسه

---

(1)- الجاحظ ، 1948 م . البيان والتبيين . تحقيق عبد السلام هارون، الطبعة الأولى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1: 79. أورد الجاحظ هذا البيت ، ولم ينسبه إلى قائل. وفيه يقول:

العينُ تُبدي الذي في نفس صاحبها من المحبة أو بُغْضٍ إذا كانا.

(2)- هو أبو خِراش خُوَيْلد بن مُرّة من بني هُذيل، شاعر مخضرم، وفارس مشهور. أسلم وهو شيخ كبير، وعاش إلى أيام عمر رضي الله عنه، وله معه أخبار . ينظر ابن قتيبة، 1966م، الشعر والشعراء. تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف ، مصر،2: 663 .

(3)- ذكر ابن منظور هذا البيت في (اللسان) شاهداً على (رَفَأَ) بمعنى(سَكّن). وقوله: رفَوْني أي سكّنوني من الرُّعب.ينظر مادة (رفأ).

(4)- الخصائص،1:246-247.

وعند جميع من يَحضُر حاله صادقاً فيه، غير مُتَّهم الرأي والنَحِيزَة والعقل. فهذا حديثُ ما غاب عنا فلم يُنقل إلينا، وكأنه حاضر معنا، مُناجٍ لنا"[1].

فالإشارة وما يصاحبها . أي الحدث غير الكلامي وما يصاحبه . هي عنده في درجة متقّدمة؛ لأنها أبلغ من العبارة، أي (الحدث الكلامي)، حتى لو شُفِعت هذه العبارة بأغلظ الأيمان.

ومن جملة ما تقدّم يمكن القول، بلا مغالاة ودون تحيّز لابن جنّي، أو تجنٍّ على غيره: إن الأصالة في مفهوم السياق بشقَّيه (المقالي والحالي)، إنما هي لابن جنّي الذي كوّن فكرة قانون نظري تتّصل بما نسميه اليوم نظرية السياق، وليست للباحثين المحدثين. إلّا أن الأخيرينَ قدّموا للسياق نظرية منسّقة منظّمة متكاملة ذات أهمية بالغة في تحديد المعنى المراد،على حين جاء فهم ابن جنّي للسياق في أقوال متفرّقة، وآراء مبعثرة متناثرة على صفحات خصائصه، تفتقر إلى التنظيم في إطار شامل. ويشفع له ذلك الفارق الزمني، فقد تقدّم بألف سنة أو تزيد على المحدثين الذين أفادوا من تقدّم العلم وتطوّر أسباب المعرفة.

---

(1)- نفسه،1:248.

– ثبت المراجع والمصادر–

- القرآن الكريم .
- ابن الأنباري، أبو بكر محمد بن القاسم : 1960م ، الأضداد . تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ، الكويت .
- ابن جنّي، أبو الفتح عثمان : 1371هـ - 1952م ، الخصائص . تحقيق محمد علي النجار ، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية .
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: 1382هـ -1992، المقدمة . تحقيق علي عبد الواحد وافي ، لجنة البيان العربي ، القاهرة، الطبعة الأولى .
- ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله : 1966م، الشعر والشعراء. تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف ، مصر.
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم : د . ت ، لسان العرب . دار صادر ، بيروت .
- أبو عودة ، عودة خليل : 1405هـ - 1985م ، التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم . مكتبة المنار الأردن ، الطبعة الأولى .
- -أبو الفرج الأصفهاني ، علي بن الحسين : 1932، الأغاني . الطبعة الأولى. مطبعة دار الكتب المصرية، الطبعة الأولى.
- أولمان ، استيفن : 1975م ، دور الكلمة في اللغة . ترجمة كمال بشر ، مكتبة الشباب، القاهرة .
- التبريزي، أبو زكريا يحي بن علي : 1358هـ ، شرح ديوان الحماسة . تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر.
- الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر : 1367هـ - 1948م ، البيان والتبيين . تحقيق عبد السلام هارون ، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر ، القاهرة ، الطبعة الأولى .
- الجرجاني ، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن : 1404هـ - 1984م ، دلائل الإعجاز .

تحقيق أبي فهر محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي ، القاهرة .

- حسان ، تمّام : – 1400هـ – 1979م ، مناهج البحث في اللغة ، الدار البيضاء .
- 1481هـ – 1998م ، اللغة العربية معناها ومبناها . عالم الكتب ، القاهرة.
- السعران ، محمود : – 1958م ، اللغة والمجتمع رأي ومنهج . المطبعة الأهلية ، بنغازي .
- علم اللغة ، مقدّمة للقارئ العربي . دار الفكر العربي ، القاهرة .
- السكّاكي ، أبو يعقوب يوسف أبي بكر : 1317هـ ، مفتاح العلوم . تحقيق محمد الزهري الغمراوي، المطبعة الأدبية ، القاهرة .
- سيبويه ، أبو بشر عثمان بن قنبر : 1361هـ ، الكتاب . المطبعة الأميرية الكبرى ، بولاق ، الطبعة الأولى .
- السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر : 1973م ، الإتقان في علوم القرآن . المكتبة الثقافية ، بيروت .
- عمر ، أحمد مختار : 1402هـ–1982م ، علم الدلالة . مكتبة العروبة ، الكويت .
- علي محمد محمد يونس: 2007م، المعنى وظلال المعنى أنظمة الدلالة العربية . دار المدار الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية.
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد: 1322هـ ،كتاب المستصفى من علم الأصول . المطبعة الأميرية ، بولاق ،مصر ، الطبعة الأولى .
- القزويني، جلال الدين محمد بن عبد الرحمن : 1405هـ – 1985م ، الإيضاح في علوم البلاغة . تحقيق محمد عبد المنعم خفاجة ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت.
- ليونز ، جون : 1990م ، ما معنى نظرية المعنى عند فيرث . ترجمة عبد الكريم مجاهد ، مجلة آفاق عربية ،كانون الأول .
- مجاهد ، عبد الكريم: 1985م ، الدّلالة اللغوية عند العرب ، دار الضياء ، الأردن .
- المرزوقي ، أبو علي أحمد بن محمد : 1371هـ – 1951م ، شرح ديوان الحماسة . تحقيق أحمد أمين ، وعبد السلام هارون ، القاهرة .